الصراع على ذمار بين الزيدية والطاهريين في عهد السلطان الظافر عامر بن طاهر من سنة 858 ـ 870هـ / 1454 ـ 1465م

د. محمد أحمد طاهر الحاج *

أولاً: الزيدية التسمية ودخولها اليمن

الزيدية: فرقة من الشيعة، وتنسب إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي خرج في خلافة هشام بن عبد الملك حتى قتل سنة 122هـ / 740م ثم انتشرت هذه التسمية عن طريق تلامذته وأولاده الذين تفرقوا في البلدان خوفاً من بني أمية [1].

وللزيدية نظرة مختلفة عن باقي فرق الشيعة، خاصة في مسألة المعارضة للحاكم، فقد تبنت مبدأ (الخروج عن الحاكم الظالم بالسلاح)، مما جعلها أكثر فرق الشيعة علانية وصراحة [2]، والحقيقة أن مبدأ الخروج عن الحاكم الظالم مبدأ من مبادئ الإمامة عند الزيدية جعلت الكثير منهم يتعرض للاضطهاد و السجن والقتل طوال العصرين الأموي و العباسي و ما بعدهما. [3].

* جامعة ذمار ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ

دخول الزيدية اليمن:

إن أول من دعا إلى مذهب الزيدية في اليمن الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، الذي يُعد مؤسس الدولة الزيدية في اليمن إثر خروجه الثاني إلى اليمن سنة 284هـ/ 897م [4]، ومنذ مجيء الهادي إلى اليمن وتأسيس دولة زيدية قاعدتها صعدة[5]، أستطاع من خلالها إظهار مذهب الزيدية باليمن وتعاقب عليها عددٌ من الأئمة عارضوا حكم الدويلات المستقلة (آل يعفر، الصليحيون، بنو حاتم، بنو مهدي، بنو أيوب، بنو رسول، بنو طاهر)، فكانت دولتهم تمتد لتسيطر على معظم اليمن وأحياناً تنكمش إلى دولة صغيرة في الشمال، وذلك بحسب الظروف السياسية في البلاد ومدى قوة الدولة القائمة آنذاك [6]، واستمرت دولة أئمة الزيدية بين ضعف وقوة حتى تمكنوا من السيطرة على اليمن في عهد أسرة آل القاسم ــ من سنة 1006 ــ1382هـ / 1597ــ 1962م ــ التي تم إسقاطها بقيام الجمهورية و إلغاء الإمامة رسمياً في 26 سبتمبر 1962م [7].

ثانياً: قيام الدولة الطاهرية في اليمن من سنة 858 ـ 923هـ / 1454ـ1517م.

قامت دولة بني طاهر سنة 858هـ/1454م على أنقاض دولة بني رسول، وكان أول من استقل بملك اليمن من بني طاهر الأخوان علي بن طاهر بن تاج الدين الذي لُقب بالملك المجاهد، وعامر بن طاهر بن تاج الدين الذي لُقب بالملك الظافر [8]، وكان قيامها رسمياً حينما دخل الأخوان المجاهد والظافر مدينة عدن [9]، وخرج منها الملك المسعود الرسولي هارباً إلى زبيد [10]، ومنها إلى مدينة حيس [11] التي أعلن فيها خلع نفسه سنة 859هـ/1455م، فسار الملك الظافر عامر بن طاهر إلى زبيد، ودخلها دخولاً معظماً وخُطب له على منابرها في 12 ذي الحجة من السنة نفسها ، فكان ذلك إيذانا بنهاية دولة بني رسول وقيام دولة بني طاهر [12].

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن بني طاهر ورثت بلاداً تسودها الفوضى والاضطرابات، وتمزقها الفتن الداخلية، إذ أعلنت كثير من القبائل اليمنية عصيانها وتمردها خاصة التي كانت تقطن منطقة تهامة، الأمر الذي حتم على الأخوين المجاهد والظافر الاشتراك في حكم اليمن من باب الحفاظ على تماسك الدولة الطاهرية في بداية تكوينها، نظراً لعدم استقرار الأوضاع الداخلية [13].

ثالثاً: الصراع على ذمار بين الزيدية وبني طاهر

لقد أدت حركة التمرد والعصيان من قِبل كثير من القبائل ضد بني طاهر إلى تشجيع الزيدية وطمعها في السيطرة على اليمن، وراودتها الأحلام في إجهاض الدولة الناشئة قبل تمكنها، واستطاعت الزيدية السيطرة فعلاً على قسم كبير من اليمن يمتد من ذمار وصنعاء جنوباً إلى صعدة وما يليها من الجبال شمالاً، الأمر الذي حتم على بني طاهر مواجهة تلك الحركات والتصدي لها، وتزعم الإمام الناصر بن محمد قوى الزيدية المناوئة لبني طاهر، وأبدت الزيدية استعدادها مهاجمة منطقة رداع [14] مقر السلطات الطاهرية [15].

كانت الزيدية بزعامة الإمام الناصر قد حشدت قواها وانطلقت من صنعاء متجهةً نحو ذمار، وكان ذلك في سنة 862هـ/1457م، فلمَّا علم السلطان الظافر عامر بن طاهر خرج لمواجهة الزيدية، بيد أن خروجه لم يكن للحرب بل عقد صلحاً مع إمام الزيدية، ولم تذكر المصادر أية بنود لذلك الصلح، الذي أفرزه ضعف بني طاهر في مواجهة الإمام الزيدي الذي عاد إلى صنعاء بعد عقد الصلح [16].

ويبدو أن بني طاهر بعد عقد الصلح قد أدركوا عدم استطاعتهم مواجهة الزيدية، وقاموا بتغذية الصراع الدائر بين أئمة الزيدية حول مسألة الإمامة، فقاموا بمراسلة الإمام الناصر بن محمد سراً، وشجعوه على التخلص من منافسه الإمام المطهر بن محمد، وفي مقابل ذلك راسل السلطان الظافر عامر بن طاهر الإمام المطهر بن محمد، والأمير

محمد بن حسن قائد همدان وحرضهما على التخلص من الإمام الناصر، وأبدى استعداده لمناصرتهما، واستجاب الإمام المطهر بن محمد لدعوة السلطان الطاهري، وسار بجيش من كوكبان [17]، ولقيه قائد همدان وتحركت جموعهما نحو صنعاء، وجرت حرب ومصاولة شديدة على صنعاء، وحصن (ذي مرمر) [18] وفيه عامل الناصر، واستمرت الحرب سجالاً بين قوى الزيدية حتى استولت قوات الإمام المطهر على قلعة (ظهر) القريبة من صنعاء [19].

لم يكن الإمام الزيدي الناصر بن محمد غافلاً عن الدور الذي لعبه السلطان الظافر عامر بن طاهر في تأليب قوى الزيدية ضده في المناطق المحيطة بصنعاء، لذلك استقر رأيه على مهاجمة بلاد بني طاهر الواقعة إلى الجنوب من ذمار مهما كلفه الأمر، فأعد حملة عسكرية سنة 863 هـ/1458م، ووقع الحرب بينهم، وقُتل من أصحاب الإمام جماعة [20].

رجع الإمام الناصر بن محمد إلى ذمار، ومنها قام بجمع قوى الزيدية المناصرة له، وتمكن من إعداد جيش كبير الغرض منه إجهاض الدولة الطاهرية المتمركزة في رداع، فلما اقتربت قوى الزيدية من رداع خرج السلطان الظافر عامر بن طاهر لملاقاة الزيدية، ووقعت الحرب بينهما قُتل فيها الكثير من الطرفين، وكان النصر حليف الزيدية، وهُزمت عساكر بني طاهر، وقُتل من مشايخ بني الطاهر محمد بن طاهر أخو السلطان، وانتهبت خيامهم والكثير من معداتهم وخيولهم، وعادت قوى الزيدية إلى ذمار [21].

وأمام ذلك الخطر الذي بات يهدد الدولة الطاهرية من جانب الزيدية، أعد السلطان الظافر عامر بن طاهر جيشاً جراراً في شهر رجب سنة 865 هـ/1460م، وسار نحو منطقة ذمار المتمركزة بها قوى الزيدية، وقاموا بضرب خيامهم خارج المدينة، فلما أحس الناصر عدم قدرته على المقاومة، خرج مع نسائه وأولاده إلى حصن (هران) [22]، ودخلت القوات الطاهرية ذمار دون قتال، وبعد دخول السلطان ذمار أقر أوضاعها وأناب ابن أخيه علي بن تاج الدين عنه وعاد إلى رداع [23].

إلا أن نشوة الانتصار وسيطرة الملك الظافر على ذمار لم تدم طويلاً، إذ قامت الزيدية بزعامة الإمام الناصر بإعداد حملة عسكرية سنة 866 هـ/1461م للسيطرة على ذمار، وانتزاعها من بني طاهر خاصة وأن الملك الظافر خرج منها على رأس حملة عسكرية لإخضاع المتمردين عن الدولة الطاهرية في منطقة الشحر [24]، واستطاعت قوات الزيدية السيطرة على ذمار، فأرسل عبد الوهاب بن داود بن طاهر إلى عمه الملك الظافر يخبره بذلك، فأمره بأن يجمع جموعه حتى يصل إليه، وحينما وصل عسكر الظافر هاجمت القوات الطاهرية ذمار في رجب من السنة نفسها وهرب الإمام الزيدي إلى حصن هران[25].

وخرج أهل ذمار إلى السلطان يطلبون منه الأمان فأمنهم واستولى الملك الظافر على ذمار، ودخلها واخرب القصر واستولى على خزانة الإمام وطلب الإمام من السلطان المصالحة وعرض عليه تسليم حصن هران وأن يكون له ما وراء نقيل يسلح إلى ذمار، وما عداه للناصر فلم يستجب السلطان الظافر بل طلب منه إرجاع حصن (ذي مرمر) لهمدان، فكبر ذلك على الإمام الناصر، وسارع الإمام بالتوجه نحو صنعاء وترك أهله وبعض عساكره في حصن هران [26].

لم يستطع الإمام الناصر مواصلة سيره إلى صنعاء، فقد اعترضته القبائل في (عرقب) [27]، وأظهروا له أنهم من أتباعه، وطلبوا منه النزول في ضيافتهم، فلما دخل عندهم أسرته تلك القبائل، وسلمته للإمام المطهر بن محمد الذي قام بسجنه إلى أن توفي سنة 868 هـ/1463م [28].

مصرع السلطان الظافر عامر بن طاهر على أيدي الزيدية:

لقد كانت عملية أسر الإمام الزيدي الناصر بن محمد وسجنه من أهم الأسباب في تفكير السلطان الظافر في توسيع دائرة الصراع مع الزيدية، وتقليص نفوذهم شمالاً، فقام

بمحاصرة أسرة الإمام في حصن هران وضيق الخناق عليهم، ثم توجه شمالا للقضاء على نفوذ ابنه محمد في صنعاء [29].

فأدرك محمد بن الإمام الناصر الذي كان يسيطر على صنعاء خطورة موقفه، إذ أصبح بين قوتين متحالفتين، قوة الإمام المطهر بن محمد شمالاً، وقوة بني طاهر جنوباً، لذلك أسرع في مراسلة السلطان الظافر وعرض عليه تسليم صنعاء مقابل خمسين ألف ديناراً، كما أنه أراد من وراء ذلك ضرب تلك القوتين بعضها ببعض، فوافق السلطان الظافر ودخلت قواته صنعاء في شوال سنة 866 هـ/1461م [30].

وحينما أدرك محمد بن الناصر أنه أخفق في سياسته قام بتدبير خطة أثناء غياب والي صنعاء من قبل السلطان الظافر، ودخلها بمساعدة أحد كبار أعوانه ويدعى محمد بن عيسى بن شارب في المحرم سنة 869 هـ/1464م [31]. وأما السلطان عامر بن طاهر فقد غضب غضباً شديداً لتخليه عن صنعاء بهذه السهولة، وبادر بإعداد جيش جرار لاستعادتها، وحاصرت قواته صنعاء، إلا أنهم فشلوا في دخولها، وصالحوا محمد بن الإمام الناصر على مال يلتزم بدفعه لبني طاهر [32].

وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر أسباب رجوع السلطان الظافر إلى بلاده، إلا أنها ترجح أن أخبار المصالحة تلك غير صحيحة، بدليل أن السلطان عاد لمحاصرة صنعاء في المحرم من سنة 870 هـ/1465م، وقامت قواته بعملية تخريب واسعة النطاق في المناطق المحيطة بصنعاء، وحينما اقترب جيش السلطان والتحم بجيش الزيدية، استطاعت قوات الزيدية إلحاق الهزيمة بجيشه ولقي مصرعه على أبواب صنعاء، وقُتل من عسكره خلق كثير، وقامت الزيدية بعد هزيمتهم بسلب ما جلبوا من أموال وسلاح، وخيول، وبقتل السلطان الظافر يُسدل الستار على ذلك الصراع الذي دام قُرابة عشر سنوات مع خصومه من الزيدية [33].

الهوامش و التعليقات:

(1) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ج1، ص: 172، الفضيل، علي بن عبد الكريم، الزيدية نظرية وتطبيق، ص: 27.

(2) صبحي، أحمد محمود، الزيدية، ص: 61.

(3) النونو، يحيى بن حسين، نظام الحسبة عند الزيدية، ص: 65، الموسوعة اليمنية، ج1، ص: 498.

(4) سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، ص: 41.

(5) صعدة بالفتح ثم السكون، مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد، وبها مدابغ الأدم وجلود البقر، الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان ج3، ص: 406.

(6) الموسوعة اليمنية، ج1، ص: 498.

(7) المرجع السابق ص: 455.

(8) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن في تاريخ اليمن، (خ)، ص: 247.

(9) عَدَن: بفتح العين والدال المهملتين، مدينة كبيرة جنوبي تهامة عند مضيق باب المندب، المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص: 432.

(10) زَبيد: وادٍ مشهور يصب في تهامة ثم البحر الأحمر، وقد أطلق هذا الاسم على المدينة التي تقع في منتصفه، المقحفي، المرجع السابق ص: 286.

(11) حَيْس: بفتح الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت ثم سين مهملة، مدينة بالجنوب من زبيد بمسافة 35كم، المقحفي، المرجع السابق ص: 202.

(12) ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، ص: 406، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص: 122.

(13) محمد عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص: 258.

(14) رداع: مدينة كبيرة شرقي ذمار بمسافة 53كم، اتخذ حكام بنو طاهر من بلدة المقرانة التي تقع على مسافة 62كم عاصمة لهم، وشيدوا بها عدة مباني، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص: 265، 623.

(15) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن في تاريخ اليمن، (خ)، ص: 249، زبارة، أئمة اليمن، ج 1، ص: 324.

(16) ابن الديبع، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص: 129، زبارة، أئمة اليمن ج1، ص: 324.

(17) كوكبان: حصن ومعقل شهير يطُل من الشمال الشرقي على مدينة شبام الأثرية، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص: 543.

(18) ذي مرمر: حصن مشهور يُدعى أحياناً (حصن الغراس)، ويقع في ثُمن ذي مرمر أحد أثمان ناحية بني حشيش، الأكوع، إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج 2، ص: 788.

(19)يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، (خ)، ص: 250، 251.

(20)زبارة، أئمة اليمن، ج 1، ص: 324.

(21) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص: 130، يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، (خ)، ص: 249.

(22) هِرَّان: بكسر الهاء وتشديد الراء، من حصون ذمار، ويقع في شمال المدينة، وكانت به قرى عامرة، وقصور عالية، الحموي، معجم البلدان، ج5، ص: 396، المقفحي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص: 677.

(23) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص: 131، الجنداري، أحمد بن عبد الله، الجامع الوجيز، (خ)، ورقة / 113، يحيى بن الحسين، أنباء الزمن (خ)، ص: 249،250.

(24) الشحر: بكسر أوله وسكون ثانيه، صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، ويقع بين عدن وعمان، الحموي، معجم البلدان، ج3، ص: 327.

(25) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص: 132، قرة العيون، ص: 412.

(26) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، (خ)، ص: 251، زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص: 325.

(27) عرقوب: بلد من ناحية الحدا، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص: 439.

(28) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، (خ)، ص: 251، زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص: 325.

(29) يحيى بن الحسين، المصدر السابق ص: 252.

(30) الزحيف، محمد بن علي بن يونس، مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار، ج 3، ص: 1295، محمد عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر، ص: 317.

(31) ابن الديبع، قرة العيون، ص: 414.

(32) الزحيف، مآثر الأبرار، ج3، 1298.

(33) ابن الديبع، قرة العيون، ص: 415، الزحيف، المصدر السابق ص: 1298.

المصادر والمراجع:

- الأكوع، إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1416هـ / 1995.
- الجنداري، أحمد بن عبد الله، الجامع الوجيز بذكر وفيات العلماء ذوي التبريز،مخطوط مصور، دار المخطوطات، صنعاء، برقم (2524)، حقق الباحث منه من سنة 532- 858هـ.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت.
- ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط/ 2، 1409 هـ / 1988م.
- بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق: عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ط/ 1979م.
- زبارة، محمد بن محمد، أئمة اليمن، القسم الأول، مطبعة النصر الناصرية، تعز، ط/1، 1375.
- الزحيف، محمد بن علي بن يونس، مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار، تحقيق: عبد السلام الوجيه، خالد قاسم، مؤسسة الإمام زيد بن علي، الأردن، ط/1، 1423هـ / 2002م.
- سيرة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، رواية علي بن محمد بن عبد الله العباسي، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، ط/ 2، 1401 هـ / 1981م.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، قدم وعلق حواشيه: صلاح الدين الهواري، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط/ 1، 1988م.

- صبحي، أحمد محمود، الزيدية، الزهراء للإعلام العربي، ط/ 2، 1404 هـ/ 1984م.
- الفضيل، علي بن عبد الكريم، الزيدية نظرية وتطبيق، دار العصر الحديث للنشر، بيروت، ط/ 2، 1412 هـ / 1990م.
- محمد عبد العال، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما 628- 923هـ / 1231- 1517م، دار المعرفة الجامعية، 1989م.
- المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ط/ 1988م.
- الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ط/ 1، 1412 هـ / 1992.
- النونو، يحيى بن حسين، نظام الحسبة عند الزيدية، مكتبة التعاون، صنعاء، ط/ 2، 1424هـ/ 2004م.
- يحيى بن الحسين، أنباء الزمن في تاريخ اليمن، مخطوط مصور، دار المخطوطات، صنعاء، رقم(109).